القصص

قصـــة فى رسالة

سيدى الطبيب :

إن المصادفات المشئومة والحظوظ السيئة ، ساقتك الى وعرفتك بى ، ما كنت أظن أن امرأ تافها ستكون نتيجته وخيمة الى هذا الحد !

قبل أيام وقفت عجلة كبيرة مملوءة بالأثاث أمام الدار المواجهة لدارنا ، فرغبت أن أعرف وأنا فى نافذتى أولئك الذين سيكونون جيراننا فى هذا الصيف ، فرأيتك عارى الرأس تأمر وتنهى وتساعد الخدم كلما قضت الحاجة بذلك ، ثم رفعت رأسك نحو نوافذ غرفتى : وكانت — يالأسف — نافذتى مفتوحة ، فرأيتنى — ويا ليتك لم ترنى — اجل ، رأيتنى وأنا أبتسم ، وكنت السبب فى تلك الابتسامة ، لأن انهماكك فى تفريغ العجلة وأوامرك التى لا حد لها ولا نهاية كانت مضحكة جداً . فالذنب إذاً ذنبك وتبعته عائدة عليك . ثم رأيتنى مرة ثانية وأنت ترسل ستائر نوافذ بيتك ، فى تلك الأثناء وجهت بصرك نحو نوافذنا وابتسمت لى فهذا ذنب ثان كان منك ؛ كنت أظن أن هذه الأشياء تافهة فى ذاتها وأنها لن تبقى راسخة فى مخيلتك عالقة بذهنك ؛ ولكنى فى ملاقاتى الثالثة علمت أنك أعطيت ذلك من الاهتمام شيئاً كثيراً .

أظن أن ذلك كان بعد عشرة أيام ، خرجت مع والدتى من البيت فرأيتك مقبلا من الشارع الذى أمامنا ، ولكنك فى هذه المرة لم تبتسم لى — وياليتك ابتسمت — ولو فعلت ذلك لما اكترثت بل كنت أعدك ككثير من الرجال الذين يبتسمون لكل أنثى يصادفونها فى طريق . لكنك لم تبتسم بل اصفر وجهك . وفى أقل من ثانية لم يبق فيه أثر للدم كأنه انسحب ليجتمع فى قلبك فقط . ماهو سبب ذلك ؟ ولماذا اصفر وجهك ؟ كان يجب أن تلاحظ أن حالة كهذه أمام الفتيات توجب لهن القلق وتسبب الاضطراب ، وهذا الذنب الثالث أوجهه اليك أيضا ، بعد أن مررت قالت والدتى : « أليس هذا الرجل هو الطبيب الذى سكن أمامنا ؟ » ولا أدرى لماذا كذبت عليها وقلت « لا أعرف » مع أنى كنت أعرف جيداً أنك فى هذا الصيف تزيل الدار التى امامنا .

وكانت مقابلتى الرابعة لك فى النزهة ، وفى هذه المرة لم تبخل بالابتسام فقط بل بخلت بالنظر أيضا ، يالله ما أشد اصفرار وجهك إذ ذاك ! كلما ذكرت حالتك تلك ، شعرت بحس غريب ، وألم لا أدرى مصدره ، فانى لم أفعل شيئاً يوجب اضطرابك ولا أرى على أدنى تبعة يمكن أن يتحملها وجدانى .

فقررت بعد ذلك أن أبالغ فى الاحتياط ، وأشتد فى الحذر وبخاصة منك ، لأن ابتسامة من غير قصد ولا رأى أخذت موقعاً مهماً أرعبنى ، فقررت أنه يجب أن يقف الأمر عند هذا الحد .

ولكنك لم تقف عند هذا الحد ؛ ولم تلحظ أن الفتاة التى ابتسمت لك عن غير قصد ؛ وابتسمت لها لم تكن إلا طفلة لا شابة ، وانها تود الآن أن تصلح خطأها .

كلما قرع جرس الباب ، وكلما حدثت ضوضاء أمام الباب برز خيالك من وراء زجاج النوافذ ، لقد طرأ عليك وعلى أحوالك تبدل هائل خلال هذه الخمسة عشر يوما ، كنت ترى مطرقا حزينا عميق الافتكار ، تمشى بطيئاً جداً كأن المشى السريع سيقطع سلسلة أفكارك ، تقف أمام داركم وتلمس زر الجرس الكهربائى وتلتفت نحو نوافذنا ، وسرعان نظرة استرحام تدل على أن كل ذلك كان من تلك الطفلة البريئة صاحبة تلك الابتسامة .

ثم مرضت ، وأخذ القدر يمشى يك نحو الهاوية التى كنت أحترس منها ، لما علمت أن والدتى تود أن ترسل اليك لتعودنى مانعت وطلبت طبيبا غيرك ، ولكنى غلبت على أمرى ، ولو رأيتنى حينذاك لعلمت جيداً كيف كنت أخشاك . لما دخلت

على لفحصى كنت مضطربا أصفر الوجه ، وكل ما كنت أتمناه أن يحس نبضك جاس حينما أمسكت أنت يدى لتعد نبضى . . . كنت تسعى لاخفاء اضطرابك وتخلط كلامك بالنكت اللطيفة ، وتظهر عدم الاكتراث ، ولكن كان تكلفك ظاهرا وكان مثلك فى ذلك كمثل المغنى الذى يغنى أنشودته على غير توقيعها .

كنت فى كل مرة تدخل على عائدا أكثر اضطرابا وأشد يأسا وتألما من المرة السابقة ، وأرى ورد خديك قد صار بهاراً كأنى كلما تقدمت نحو الصحة تقدمت أنت نحو المرض ، وأخيرا بعد أن انتهى المرض ومضى دور النقاهة قلت لى بلهجة مملوءة بالحزن العميق الشامل جميع انحاء فؤادك « انك لست بحاجة بعد اليوم إلى المعالجة » ، وكانت نغمة صوتك تحمل معنى « إنى أنا المحتاج إلى العلاج » .

إن تلك العلاقات التافهة البريئة التى بيننا كان يجب أن تقف عند هذا الحد ، ولكنك أنت أبيت إلا أن تسير فى هذا الطريق وأنت لا تعلم أتصل إلى نهايته أم لا ؟ . ان تبعة ما فعلته بعد رؤيتك لى وأنا مريضة عائدة عليك كما كانت عليك تبعة الذنوب التى كانت قبل المرض .

لقد شاهدتك البارحة وأنت جالس على كرسى فى غرفتك تراقب نافذتى وأنت مشغول عن كل ماحولك إلا عن نافذتى كأن عينيك لا تشاهدان إلا ما وراء زجاجها ، فسمعت صوتا ساعدنى على فهمه سكون الليل وهدوءه ، سمعت صوت زوجك تناديك قائلة « لماذا لم تدخل إلى الغرفة ؟ » فأجبتها بحدة جوابا ظهر لى منه انك تألمت لهذا السؤال الذى قطع تلك اللذة التى كنت تشعر بها وأنت منفرد عن بقية أفراد الاسرة ، قلت لها « إذا كنت تريدين النوم فانى ، إنى أود أن أبقى فى الشرفة » .

لا أدرى لماذا أكتب اليك كل هذا ؟ وربما كان ذلك لتبرئة نفسى من تبعة ما كان ، إنى لا أدرى كيف عزمت وقر رأيى على كتابة هذه الرسالة ، ولست أدرى ما الذى يمنعنى من تمزيق تلك الورقة التى أحررها اليك ؟ أنت ترى انى لم أجد جوابا لهذه الاسئلة ، ولكنى أرى انى تابعة لحس خفى يسوقنى لارسال هذا الكتاب اليك .

تصور فتاة نشأت بين دلال الأم وعطف الأب ، تقضى أكثر ليلها فى مكتبة والدها تتسلى بقراءة الحكايات ، وأكثر أيامها تمضى فى السينما تبكى من الفواجع التى تصورها اللوحة الفضية ، لاهمّ لها ولا غم ، ولكنها تتألم لألم الناس وتحزن لحزنهم . ثم تذهب الى مخازن الازياء فاذا عادت بما تحب قدمت الى والدها أوراق الحساب ذات الارقام الضخمة . لم تفكر فى حياتها كلها بشىء غير هذا ولم يطرأ على حياتها طارئ الا أن شابا ابتسمت له وهو يأمر وينهى خدمه وهم ينقلون الاثاث الى المنزل الذى امام دارها ، ثم ابتسم لها وهو يرسل سجف نوافذ المنزل ، أليس الأمر حتى الآن طبيعيا ؟ ولكن هذا الشاب لم يتلق هذا الابتسام كأمر طبيعى ، بل ظل يراقب النافذة وهو مضطرب حائر ، ثم بعد كل ذلك يرمى داخل مظلتها المغلقة وهو يمر من جانبها كتابا من غير أن تشعر بذلك والدتها التى بجانبها ، ان هذه الاشياء أخذت تخرج عن الحد الطبيعى ، لذلك أصبحت الفتاة الشابة ترى أن الضحك ليس أمرا طبيعيا

ما أشأم تلك المصادفات التى التقت فى طريق ، وما أضل الافكار التى أوحت اليك وضع الورقة فى مظلتى ؟ ماهو الشىء الذى خولك حق رمى ورقة الى فتاة لم تر ولو فى المنام من يؤذيها أو يلعب بشعورها ؟ .

كنت حتى اللحظة أشعر نحوك بشىء لا أدرى ماذا أسميه ؟ أشعر بشىء شبيه بالرحمة والعطف ، ولكنى منذ سمعت صوت الورقة وهى تقع فى مظلتى نفرت منك نفوراً شديداً .

لقد شعرت بحس قوى يدفعنى الى أن أفتح مظلتى وأرمى تلك الورقة فى الارض ، ولكنى لا أدرى لماذا لم أنفذ هذا العزم ؟ لقد تغلب على حب الاطلاع ، وأردت أن أعلم ما الذى كتبته لى فى كتابك . هل قدرت عظم ذنبك وأنت ترمى ورقتك فى مظلتى ؟ هل قدرت حرج موقفى فى تلك الدقيقة ؟ وهل قدرت أنها جناية غير قابلة للغفران ؟

إن ما يشع فى عينيك من النجابة وما يقرأ فيهما من آثار العفة يشهد بأنك كنت تحت تأثير غفلة خضعت لها عن غير ارادة منك .

حينما بلغت البيت ذهبت توا الى غرفتى وفتحت رسالتك فلم فيها ولا كلمة واحدة تثقل على سمع فتاة مثلى .

فرأيى السابق فيك كان صحيحا . لقد أثبت لى ذلك كتابك ذو الصحائف الأربع الذى لا يحتوى على معنى تفيده جملة مركبة من أربع كلمات ، فما الغاية إذن من كتابته الى ؟ هل أظهرت لك رغبتى فى الاطلاع على أنك لست سعيداً فى حياتك ؟ وهل طلبت منك أن تكتب الى ذلك فى صحائف أربع ؟ قرأت كتابك المرة تلو المرة ولم أفهم له

غاية . فقلت فى نفسى : إنه يعلن لى حبه ، ولكن زوجته ؟ .. أولاده ؟ ..

فى مساء أحد الأيام كان الأولاد يلعبون أمام الدار ، فشاهدت ابنتك الصغيرة ذات الوجه الجميل والشعر الاشقر المحيط بوجهها احاطة الهالة بالقمر تصفق طربا وتصيح : هاهو ذا والدى قد جاء وتركض نحوك ، فاذا أنت تقطب حاجبيك وتأمرها بالابتعاد عنك ، وترفع عينيك نحو نافذتى ، فعادت الصغيرة كئيبة حزينة ، لايقدر يراعى أن يصف لك نفورى منك وكرهى لك فى تلك الدقيقة ، اذن أنت فى شغل بى حتى عن أولادك فأنت تنظر اليهم بقسوة وتعاملهم معاملة سيئة ؟ إن حالتك هذه كافية لتشرح لى الآلام التى سببتها تلك الاسرة التى أنت ربها .

قلت فى نفسى مادمت سببا فى نفوره من زوجته وأولاده فالواجب ان تقف هذه المسألة عند هذا الحد . أخذت كتابك حينذاك وقرأته فى انعام مرة اخرى ، فخطر ببالى ان ارسله الى زوجتك ، ولكنى عدلت وانقلب ذلك النفور الذى كنت أشعر به منذ لحظة الى رحمة من أعماق قلبى .

وفى صباح اليوم الثانى بينما انا خارجة من البيت ، ولم أكن اسدلت النقاب على وجهى شاهدتك تنزل مسرعا من الدرج فالتقت العين بالعين ، خانتك قواك عند ذلك ، ولولا استنادك الى الجدار لوقعت على الارض لامحالة . فشعرت أن مهمتى تجاه هذه الحال شاقة جداً وانه يجب ان اشفق عليك وعلى زوجك وأولادك لا أن احقد عليك .

أعترف لك انك بارع جداً فى ارسال الرسائل ، انى بعد أن قرأت رسالتك الأخيرة التى وجدتها بين زجاج نافذتى وبين القفص الخشبى ، تلك الرسالة التى حتى الآن لم اكتشف كيفية وصولها الى ولم اعلم بأية طريقة وضعت ؛ شعرت بأن دافعا اهم من السابق يدفعنى للكتابة اليك ، لا لأجلك بل لأجل تخليص زوجك من معصية محتملة الوقوع ، ولمنع هذه الاضحوكة من ان تتحول الى فاجعة كبرى .

فى كتابك هذا تبحث عنى وتعلمنى أن مصادفتك لى كانت سببا فى شقائك ، وانك تحبنى حبا يغير امل ، وانى كدرت حلو معيشتكم وأنك حتى الآن كنت سعيداً بحياتك مع زوجك وأولادك ، وان حبك لى حول نعيم حياتك فى البيت الى جحيم ، وأنك ستكون ضحية هذه الصدفة ، الى آخر ما فى كتابك من كلمات .....

انى واثقة كل الثقة من أنك الآن خجل بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى لكتابتك هذه الجمل وهذه العبارات ، تصور أنك ستترك زوجك أرملة ، وأولادك يتامى من أجل ابتسامة من فتاة غرة ، وفى هذا منتهى الغرابة ....

أيقنت الآن انى سأكون سبب فاجعة كبرى ، فالواجب يقضى على أن أقف امام تلك الكارثة ، وهو الذى اضطرنى أن التجىء الى هذه الوسيلة وهى الكتابة اليك ، انت تعلم يقينا انها جرأة من فتاة مثلى ، ولكن ... ولكن الوجدان .....

تبحث أيضاً فى كتابك عن اشياء كثيرة كلها متقاربة وتقول : ان حبك لى جعل بينك وبين زوجك واولادك فراغاً لايسده شىء ؛ وانك الآن بعيد عنهم بعد الارض عن السماء ، وان كان جسمك قريباً منهم متصلا بهم ، وانك حاضر الجسم بينهم لكنك غائب القلب والعقل عنهم ؛ وان كل ذلك سيكون سببا لفرارك من هذه الحياة التى أصبحت فى نظرك جحيما .

أنا اعلم انك تبحث لى عن هذه الاشياء كلها ، ولست اعلم لذلك سببا ، واذا كان الأمر كما ذكرت فى كتابك ، فالفرار الفرار منى ...

إن حياتك فى هذين الشهرين الأخيرين تمر من أمامى كما تمر الصور على اللوحة الفضية امام جمهور النظارة فامتع النظر بها فأرى ان الشقاء فى حياتك سرى الى حياتى ايضا ، وتلونت حياتى بلون حياتكم الأسود ؛ لقد كنت سعيدة انا ايضاً حتى قبل شهرين من الزمن ، لقد كنت مرحة مرح الصبا والشباب ، وليتك تعلم مقدار حزنى وألمى وبؤسى ، لأننى كنت سببا فى شقائكم اذن انا من حيث لاادرى ولاأشعر كدرت صفو حياتكم ، وبدلت سرورها شقاء ، وقلبت نعيمها الى جحيم . صفاءها الى كدر وبهجتها الى عبوس . آه ما انعسك ايتها الزوجة ؟ ليت شعرى كم من الدموع ذرفت ، ومن الزفرات صعدت بسببى ؟ ..

أسائل نفسى عن الاسباب التى اضطرتك الى المجىء هنا ، وساقتك الى السكنى فى هذا المصيف ؛ فتقول لى ربما كان سبب ذلك ان هذه الزوجة مصابة بفقر دم ، او أحد الأطفال مبتلى بمرض ثقيل ، فاضطر ذلك الاسرة كلها الى نزول هذا المكان طلباً للعافية وتخلصاً من الاسقام ، فاذا كان الأمر كذلك فقد حضرتم هذا المكان فى طلب الصحة والعافية ففقدتم معهما السعادة العائلية ،

نعم ويالاسف ان قطرة من السم وقعت صدفة واتفاقاً فى حياتكم السعيدة فسممتها وجعلتها جحيما ...

اتمثلك فى بيتك مطرقا حزينا غريقاً فى بحر الافكار تسألك زوجتك « مابك أيها الرفيق ؟ وبماذا تفكر؟» فلا تجيبها بل تبقى فى حزنك واكتئابك ، ثم تتبرم من كثرة الاسئلة وتؤلم زوجتك بوضع كلمات فينكسر قلبها وتبكى تلك الليلة فى فراشها بكاء مراً ، تبكى بصوت خافت خشية ان تسمعها ، ولكنك تشعر بذلك وتشفق عليها ، فتقبلها قبلة تنسيها كل مابها من الم وهم وتذهلها عن كل ما كان .

ولكن بعد ذلك يعود اليك ضجرك وحزنك ، فتعامل زوجك واولادك بقسوة وخشونة ما كنت تعاملهم بهما من قبل .

ويخطر ببالى اشياء أخرى يقشعر بدنى لهولها وسوء أثرها فى زوجك واولادك ، اذا كان الامر كذلك فالفرار الفرار منى...

أنتم أتيتم إلى هـــذا المصيف لتجدوا فيه الصحة والسعادة ، ولكنكم لم تجدوا غير العلة والشقاء ، فالفرار الفرار من هنا ...

لقد جمعتنى المصادفة بزوجك ، فلتك تعلم مقدار ما كان لها فى قلبى من محبة ، وفى نفسى من مكانة ، كلما تمثل لى وجهها الشاحب ومحياها الجميل المرسومة عليه آثار الحزن العميق ؛ تألمت لها وأشفقت عليها كأنها أختى ، فيالله من سوء ما جنيت عليها وهول ما سقت اليها من العذاب على غير علم منى بذلك ولا رغبة فيه ولا قصد اليه .

أتمثلها واقفة أمامك مع أولادها تنظر اليك نظرة الاسترحام والاستعطاف والدموع ملء محاجرها ، ولسان حالها يقول : « لماذا أدرت عنا وجهك وطويت دوننا كشحك ؟ لماذا تغير قلبك علينا منذ شهرين ؟ » .

أكتب اليك ولا أدرى كيف أرسل اليك هذه الرسالة ، ولا أعلم ما الذى سيكون من أثرها فى نفسك ؟ يخيل إلى أنها ستصل اليك وزوجك نائمة فى فراشها وحولها أطفالها يغطون فى نومهم ، فاذا وقعت فى يدك جلست الى منضدتك ونشرت الكتاب عليها وجعلت رأسك بين كفيك ثم أخذت تقرؤها . ولعلك لاتنتهى من قراءة الصفحة الأولى حتى تشعر بأن غشاء الغفلة الذى يغشى عينيك اخذ ينقشع عنهما ، وتعلم يقيناً انك كنت تابعا لحس غير ثابت الأساس ، أجل ! كنت تابعاً لذلك الحس محاطاً به مغلوبا له خاضعا لسلطانه مشغولا به عن كل مايجب عليك ، كانك كنت جاهلا حتى الآن ان من العيب على المرء ان يسير وراء عواطفه وان ينقاد لها فتسوقه الى المهاوى .

فى تلك اللحظة تشعر انك لا تزال تحب زوجك واولادك فتتحرك الشفقة فى قلبك وتترك العنان لدموعك فتجرى .. أجل أترك لها العنان تسيل فوق تلك الورقة التى كلفت أن تخبرك بانتهاء تلك الرؤيا المخيفة ...

آه . إنى لا أجد ملجأ يلجأ اليه المرء لتطهير قلبه مثل دموعه ، يخيل إلى أنك الآن تبكى ، أليس كذلك ؟ إيك ماساعدتك الدموع وأسعفتك الجفون .. وغداً ، أجل ! غداً ستأخذ أسرتك وتهرب منى . أجل خذها ثم الفرار الفرار .

والآن أتمثلك وقـــد نهضت عن كرسيك مطمئن القلب ، وقد أخذت الورقة بيدك وأحرقتها بنار الشمعة المضاءة أمامك ، ثم مشيت على رؤوس أصابع رجليك ، وخرجت من غرفتك نحو غرفة زوجك وأولادك ، وأنت حذر كل الحذر أن توقظهم بوقع قدميك ، ثم طبعت قبلة طويلة على جبين كل من زوجتك وإبنك وابنتك .

كن على ثقة ان فى الدار التى أمامكم قلبا يتمنى لكم السعادة من الصميم ، ويطلب لتلك القبلة الدوام الى ابد الابد ! أجل ! ان هناك قلبا يخفق طربا لرجوع السعادة الى عشكم .

حلب — فتاة الفرات

المجـــلة الجديدة

اذا لم تكن قد رأيتها للآن فاننا نرسل لك أربعة أعداد منها من نوفمبر سنة ١٩٣٣ الى فبراير سنة ١٩٣٤ بثمانية قروش فقط فى مصر والسودان . وللخارج بشلنين فقط . وهذه الاعداد تبلغ صفحاتها نحو ٥٥٠ صفحة كبيرة حافلة بالقصص والمقالات لكبار الكتاب .

العنوان ١٢ شارع بار بمصر